بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

يمكن لفاحص التراث النقدى العربى أن يلاحظ عدداً من الأفكار النقدية، التى أثمرتها جهودُ النقاد العرب القدامى، فى مدى تسعة قرون على وجه التقريب، وذلك من خلال نصوصهم المبثوثة فى المصادر الأدبية والبلاغية والنقدية، كما يمكنه أن يرى تلك الأفكار متمايزة تمايزاً ظاهرا، جعل كل فكرة تتسم بصوت خاص، أو تبدو كخطاب منفرد، يوجهه ناقد أو عدد من النقاد إلى المتلقّى قارئا كان أو سامعاً، بغرض الكشف عن طبيعته وملامحه.

والواقع أن تاريخ "حركة النص النقدى العربي"، ابتداء من عصر الازدهار الأدبى فى القرون الهجرية (الثالث، والرابع، والخامس)، وحتى فترة التراجع عن ذلك الازدهار، التى بدأت من القرن التاسع الهجرى واستمرت إلى مطلع القرن الرابع عشر، الذى وافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادى – حيث جرت محاولات إحياء الأدب العربى – الواقع أن تاريخ هذه الحركة قد شهد فى ذلك العصر بذْر هذه الأفكار، واستنباتها، ونموّها، وتكاملها، واستقرارها بنظرات الرواة واللغويين والبلاغيين والنقاد.

وقد حظيت كل فكرة منها بتلك النظرات التى نجدها فى كتبهم ورسائلهم العديدة، وفى المؤلفات الموسوعية لغيرهم، التى اتسمت بسمات الجمع والتصنيف – غالبا – والتحليل المحدود لمسألة ما فى هذا الموضع أو ذاك من تلك المؤلفات.

والمؤكد أن هذه الأفكار قد دعمت تاريخ النص النقدى بما تشتمل عليه من أصوات جادة، تمثل "خطابات قصدية"، أراد لها أصحابها النموّ والاتساع والاطّراد؛ ثم الثبات فى أذهان الأجيال الأدبية المتعاقبة، ومن ثمَّ أمكن لنا أن نقف على اتجاهات ثلاثة ارتكزت على هذه الأفكار فى رسم الحدود الفاصلة بينها. الأول: نقدى لغوى يعرض للتعبير من ناحيتى صحة البناء النحوى، وصحة الصيغ من حيث تقيدّها بالوضْع أو التقليد المتفق عليه، أفاد فيه أصحابُه من الدرس النحوى واللغوى، الذى نهض به علماء النحو واللغة. والثانى: نقدى بيانى، عمد فيه أصحابه البلاغيون والنقاد والمتأدبون – إلى دراسة النص الأدبى، على أساس من العناصر الفنية، اللفظية والمعنوية. والثالث: نقدى متفلسف نحا فيه نقاده المتفلسفون بالنص الأدبى منحى أدبيا متفلسفا؛ نتيجة تأثرهم

العميق بالفكر الفلسفى اليونانى، فدرسوه فى ضوء قوى العقل والنفس والإلهام والخيال، ووظائفها فى صياغة الفن الشعرى.

ويلاحظ أن هذه الاتجاهات الثلاثة تتضمن فكرة نقدية تعنى بدراسة النص الأدبى بوجهه النفسى، وذلك بنصوص غير قليلة تتدرج تحت كل اتجاه، بحيث بدت هذه الفكرة "خطابا" نفسيا، متميز الصوت، يخاطب به نقادُه المتلقى، إلى جانب أوجه الخطاب الأخرى الموجهة إليه بتلك الاتجاهات.

حقاً إن عددا من النقاد العرب المعاصرين قد بحثوا "النزعة النفسية" فى بعض نصوص النقد العربى القديم بنهج نظرى وتطبيقى، يمثل إضاءات باهرة مؤثرة يسترشد بها – دون شك – الباحث عن الطاقات النفسية الكائنة فى نصوص هذا النقد، ولكن بحثهم فى هذه النزعة كان –وما زال– فتحا جديداً احتاج دائماً إلى تعزيز ودعم وتطوير وتنمية. ومن الضرورى أن ينهض بها من أتى بعهدهم من الباحثين، خاصة بعد أن تم اكتشاف نصوص جديدة، فتنوعت بسبب ذلك الرؤى فى هذا النوع من النقد، وتعددت النظرات إليه.

ومن هنا جاز لنا أن نقول: إن بحوث هؤلاء الرواد تنطوى على ثلاثة أهداف ليست إلا "دعوة" متصلة لاستمرار البحث والفحص والتقصى، و "حافزا" إلى بذْل الجهود وتقديم الإضافات بقراءات متعددة فى نصوص النقد العربى، و"حثًّا" على طرح رؤى أخرى ينبغى أن تكون مقتحمة لمجاهل جديدة، تهدف إلى تطوير هذا النوع من الدرس النقدى.

ولا شك أن هذه الأهداف الثلاثة كانت قريبة منا ملتصقة بنا نستهديها ونتذكرها حين اتجهنا فى بحثنا هذا اتجاها نرجو أن يعين فى تحديد تصور جديد لآراء نقادنا القدامى فى جوانب العمل الإبداعى أو مشكلاته التى تتعلق بكل من الشاعر والمتلقى. وهى جوانب دعت إلى تقسيم هذا الكتاب إلى خمسة فصول.

أما الفصل الأول: وهو "فاعلية الحافز" فإنه يدرس نوعين من القوى، أولهما: القوى القصديّة الإرادية التى تختص بمتابعة المعنى الطائر المحلّق المتأبّى، وترجيعه فى النفس بعد التمكن منه والسيطرة عليه، وثانيهما: القوى التسلّطية المتمثلة فى الرغبة والغضب والطرب والإلهام، كما يعنى هذا الفصل بفحص قوى الموهبة النفسية التى تنحصر فى الطبع الصافى المزوّد بقوى الرواية والذكاء والدّربة.

ويتصدى الفصل الثانى: لدراسة طائفة من العوامل المؤدية إلى اختلاف الطبائع وتباين الأمزجة، والتنوّع البيئى والزمنى، والتحول الحضارى، وخصوصية الهيئة الجسمية.

وأما الفصل الثالث: فإنه ينصرف إلى فحص نفسية متلقِّى النص الأدبى، من جهة إثارته "التأمل الباطني"، ورَصْد "انفعاله" بالعنصر الفنى الفعّال، واستبطان "استغراقه" فى هذا النص المُلقَى إليه نتيجة المشاركة الوجدانية، والاندماج الفنى.

ويتناول الفصل الرابع: لغة العمل الأدبى الشعرى، من حيث تأثيرها فى نفس المتلقى، وذلك فى ضوء الوظيفة النفسية لكل من "الصوت" "اللفظ" منفردًا، ومتجاوراً مع غيره، و"الصورة الجزئية"، بوجوهها المتضادة، والمنفِّرة، والغريبة، و"الثنائية اللغوية"، القائمة على إشكالية الصراع بين الجذْب العاطفى، والتحكم العقلى.

ويعمد الفصل الخامس والأخير: إلى دراسة فكرة القدماء عن "الإيقاع الشعري" بوجهيه: "الخارجي"، الماثل فى عنصرى الوزن والقافية، من حيث اشتمالهما على طاقات نفسية مؤثرة، "والداخلي" المتعين فى "التنغيم" اللغوى، الذى يحتوى على عدد من الوجوه الصوتية المتوافقة والمتخالفة فى النص الشعرى.

وقد حرصنا فى هذه الفصول الخمسة على "التقيد بنظرة متوازية"، إلى النصوص النقدية موضع النظر والفحص، دون خضوع لإعجاب متطرف أو تحمس مبالغ فيه لأصحاب هذه النصوص، وعلى "الارتباط الوثيق بأفكارها"، بغرض إشراك القارئ المكترث فى تأملها، وتكوين فكرة منصفة عن الرؤى المستخلصة منها.

وأسأل الله التأييد والصواب

حسن البندارى

obeikandl.com